من يكرس وجودنا في "عصر الظلمات"؟!

فاديا جبريل
رئيسة التحرير

لعب التناقض المذهبي والطائفي الدور الحاسم في انحسار الدور العربي عن المسرح الدولي وساهم بشكل مباشر في وصول العرب إلى مرحلة لم يحكموا فيها أنفسهم لمئات من السنين خلت، حيث اقتصر مبرر وجودهم على أنهم مادة أولية، أرضاً وشعباً، لا بد من إنتاجهم وتشكيلهم في كل مرة للاستفادة منهم، ورغم المآسي والويلات التي جرها هذا التناحر الطائفي والمذهبي على الأمة لا يبدو أن هناك من يحاول الاستفادة من دروس التاريخ وعبره، لعدم تسليمهم بأن هذا الاختلاف يجب أن يقتصر على أمور العبادة ذات العلاقة بالشخص نفسه.

وبما أن العرب منذ عصور محكومون من أطراف ليست (عربية) حيث لا دور في ظل تلك الحالة لسياسيين وطنيين حقيقيين، فإن المسؤولية وقعت على رجال الدين الذين على ما يبدو لم يوفق بعضهم في لعب دور التقريب والانسجام بين المذاهب، بل ساهم بقصد أو بغير قصد على تعميق هذا التنافر، متناسياً أن واجب رجال الدين اعتماد المرونة في التعاطي مع الأمور الحياتية التفصيلية بدلاً من تكبيل العقل العربي المنهك أساساً بضغوط خارجية مستمرة وأخرى اقتصادية... وبأمور لا علاقة لها بجوهر الدين والغاية التي وُجد من أجلها.

وهنا يبدو جلياً أن أياً من الدول التي تعاقبت على احتلال هذه المنطقة لم تحارب هذا النوع من الإسلام بل كانت تتعاطى معه بمكر، مظهرة احترامها للإسلام من خلال تشجيعها لهذا النوع من رجال الدين، مفضلة التعامل معهم على التعامل مع الكوادر العلمية والسياسية في الوقت الذي نرى مبادئ أساسية في الإسلام، والتي هي من جوهره وسبب انتشاره... تُحارب بشدة وأبرز هذه المبادئ "الجهاد" حيث لم تدخر تلك الدول وسيلة إلا وحاولت انتزاع هذا المبدأ، فهذا النوع من الإسلام الجهادي القوي غير مقبول غربياً لأنه وبلا شك السبب في جعل الأمة حصناً منيعاً تجاه الطامعين، مع افتقارنا لوسائل دفاعية عسكرية أخرى.

لقد حققت تلك الدول الطامعة نسبة مهمة من النجاح في الاحتيال على مبدأ الجهاد واستغلاله لمصلحتها عندما أدركت أن انتزاعه من عقول المسلمين أمر يصعب تحقيقه، فعملت على "تحريفه" مستندة إلى سوء فهم وتقدير بعض رجال الدين غير المؤهلين ليكونوا فقهاء، بل وجهت مسار الجهاد ومفهومه ضد أبناء الطوائف والمذاهب الأخرى عبر فتاوى تخدم تلك الدول وتزيد الأمة تفرقاً وتشتتاً، حيث تتصادم المذاهب مع بعضها بمبدأ الفعل ورد الفعل، ليصبح البحث عن البادئ متعذراً، عندئذ يطرح الاحتلال أو الانتداب نفسه كحل أقل كلفة وأكثر أماناً للجميع فتصبح الدويلات الطائفية الحلم المنشود لطوائف تشعر بالأمان عند التقوقع على ذاتها، وهذا ما عملت وتعمل عليه الولايات المتحدة وحلفاؤها ضمن استراتيجية معدة بدقة.. وقودها الشعوب المقهورة والخائفة وأدواتها بعض رجال الدين، والعراق مثال صارخ لتلك الاستراتيجية الأميركية. فمنذ سقوط بغداد دُفع بكم كبير من رجال الدين ليحتلوا الساحة الإعلامية بأفكار تعيدنا إلى الوراء أكثر مما نحن عليه، بينما تخضع الكوادر العلمية والأحزاب الوطنية للتهميش ولبرنامج اغتيال ممنهج لتصبح خارج دائرة الرأي والتعاطي الإعلامي، ورعاية الولايات المتحدة لزعماء الطوائف الأكثر تطرفاً في لبنان دليل واضح على تلك الاستراتيجية.

إلى هؤلاء نقول: دعوا الخلق للخالق والوطن أكبر من الجميع.. حيث لا يملك أحد تكليفاً، إلهياً بالإنابة لمحاسبة بعضنا البعض على قاعدة الدين، فرب العالمين أدرى بعباده .. يحاسب من يشاء ويجزي من يشاء.

وكلنا نعلم أن في تاريخ أوروبا فترة سادت فيها الحروب الطائفية والمذهبية... فسميت "عصر الظلمات".